هل قام رجل مؤمن يقول للأتراك : هبوا سيئات الحاضر لحسنات الماضى ؟

هل قام رجل مؤمن يقول لأهل إيران : إن العرب إخوانكم فى الله فلا تجرحوا إحساسهم بهجر الحروف العربية ؟

لقد قمت بهذا الواجب وحدى فأقنعت وزيرين فى العراق ، وفكرتُ فى الهجرة إلى إيران لأصلح ذات البين بين العرب والفرس . لكن كيف وأنا رجل يرهقه جدول الدروس وتنهب عافيته دفاتر التلاميذ ؟

لقد زار بغداد منذ أشهر صحفى إيرانى ودعانى الأستاذ ابراهيم حلمى للتسليم عليه ، فلم أستطع مخاطبته بغير الفرنسية ، مع أنه نشأ فى وطن كان بعض أهله لا يعرفون غير العربية ، ولذلك الصحفى جريدة تصدر بلغتين هما الفارسية والفرنسية ، ولو كنا حفظنا العهد لكانت اللغة الثانية عربية لا فرنسية

— يظهر أنك مؤمن يا دكتور

— أنا ملحد يا ظمياء ، فما يسرنى أبداً أن أحشر نفسي فى زمرة السذج الغافلين الذين يفكرون فى إصلاح الوثنية الهندية وينقلون عن هداية الثائرين على الاسلام في بلاد كانت من الدرر اللوامع فى تاج الاسلام

— أنت مؤمن يا دكتور

— أنا كافر يا ظمياء

— أعوذ بالله !

— وأنا أعوذ بالشيطان !

— تعوذ بالشيطان ؟ يظهر أنك ملحد حقاً وصدقاً

— اسمعى يا ظمياء ، الشيطان مخلوق شريف لأنه لا ينافق ، فهو يعلن في كل وقت أنه من الضالين المضلين ، ولو كشف كل انسان عن سريرته كما كشف الشيطان عن سريرته لأصبحنا جميعاً من الملائكة لا من الشياطين

— أنت إذاً تعبد الشيطان ؟

— أنا أعبد الله وأحب الشيطان

— قف عند هذا الحد يا دكتور

— سمعت وأطعت

« للحديث شجون »

زكى مبارك

التاريخ فى سير أبطاله

ابراهام لنكولن

هدية الأحراج الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

يا شباب الوادى ! خذوا معالم العظمة فى نفسها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم ... ...

— ١٤ —

وثمت حادثة أخرى لها دلالتها على عظمة الرجل ونبله وسمو نفسه ؛ ذلك أنه تقدم عن طيب خاطر ليدافع عن حفيد كارترايت ذلك الرجل الذى طعنه فى دينه قبل ذلك بعشرين عاماً وهو ينافسه فى الوصول إلى مقعد فى مجلس الولاية ؛ وكانت هذه التهمة أيضاً تهمة القتل ؛ ولشد ما تأثر كارترايت وهو اليوم شيخ كبير حينما شاهد حرارة دفاع خصمه لنكولن عن حفيده الذى ما لبث أن ورث ساحته ...

وأى شيء لعمرى أجل من هذا ؟ ألا إنه الخلق العظيم يبهج جماله النفوس ويملك طيبة الأفئدة، إن للناس فيه لقدوة أى قدوة، وإن لهم فى صاحبه لأسوة لن يتسنى لهم مثلها إلا فى الأفذاذ القليلين الذين ظهروا فى هذا الوجود برهاناً على أنه ثمة من صلة بين هذه الأرض وبين السماء !

ونعود بالحديث بعد إلى السياسة فنذكر أن المؤتمر الذى انعقد من الجمهوريين فى سبرنجفيلد عام ١٨٥٨ لترشيح عضو عن الولاية لمجلس الشيوخ قد اجتمعت كلمة رجاله على ترشيح لنكولن ، ولقد فعلوا ذلك فى غبطة وفى حماسة شديدتين

وهكذا اتفقت كلمة الجمهوريين على لنكولن يقدمونه لينافس دوجلاس رجل الديموقراطيين فى الانتخاب لمجلس الشيوخ ؛ فيلتقى بذلك الخصمان ويكون بينهما هذه المرة جلاد دونه كل ما سلف من جلاد ؛ وينتهى الصراع بينهما فاذا دوجلاس يرى نفسه وقد ابتعد عن الهدف بقدر ما اقترب منه ابن الأحراج، ثم إذا هو يفطن إلى طعنة سوف تحول بينه وبين غايته المرجوة فلا يظفر بها أبداً ...

وعرف لنكولن مبلغ ما ينطوى عليه الموقف من خطر ، وأدرك أنه ملاق منه رهقاً شديداً وعنتاً . ولكنه يحس فى قرارة نفسه أن له فى ذلك ما يشفى نفسه ، فهو يحمى على الصراع وهو لاتظهر مواهبه على أحسن ماتظهر إلا حين يبتعثها ضجيج الموقف وتستثيرها حرارة الدفاع

وكذلك أشفق دوجلاس وأوجس فى نفسه خيفة ، ولقد فطن وهو الخبير بأقدار الرجال ، البصير بأمور السياسة ، إلى دقة الموقف . وأدرك أن ابراهام اليوم غيره بالأمس ، فهو منه إذ ذاك حيال قوة لا تنفع معها حيلة ولا يجد فى مكر أو دهاء ، قوة منشأها عقيدة صقلتها الأيام ووثقتها التجارب وأمدتها الفطرة بمثل ما تمد به التربة الصالحة الشجرة الطيبة من الغذاء الصالح ؛ فليس ثمت مايحول بينها وبين امتداد الجذور وسموق الفرع . وكأنما كانت مارى يوم فضلت لنكولن على منافسه ورضيت به زوجاً ، تطلع على الغيب فترى هذا الصراع بين الرجلين ثم تصدر حكمها على هدي وبصيرة وعلى تجربة لا تدع مجالاً لوهم !

وهل كان انتخاب إبراهام لمجلس الشيوخ هو غاية ما يتمناه ؟ كلا فما أهون هذا الأمر إذا قيس إلى ما كانت تجيش به نفسه من آمال لم يكن يراها وقفاً على نفسه بل كان يراها لصالح غيره ؛ وهو لن يشعر لها بقيمة أو خطر إلا أن يتسع مداها حتى يشمل أمريكا كلها ؛ بل إنه ليرى رضاء نفسه فى أن يشق ليسعد بنو جنسه ...

لذلك لم يكن عجباً أن يسير كما تملى عليه مبادئه وكما يوحى إليه قلبه ، لا كما يتطلبه الانتخاب من محاورات ومداورات وألاعيب وأكاذيب ومرونة وليونة وغير ذلك مما يتذرع به الكثيرون من أصحاب السياسة حين يجعلون غرضهم النجاح فى المعركة فحسب . وما كان إبراهام يرى فى الوصول إلى مقعد فى الشيوخ إلا إحدى الوسائل لتحقيق غرضه الأسمى وذلك كما محصته الأيام هو حل معضلة العبيد مع المحافظة على كيان الاتحاد

وفيما كان رجال حزبه يقدمونه ، كان هو يعد خطاباً حاسماً يعبر به عما فى نفسه ، ولقد ظل يثبت ما يجرى فى باله على قصاصات من الورق يدسها فى قبعته ، حتى استوى له موضوعه فجمعه بعضه إلى بعض ولم يفض به إلى بعض خلصائه إلا قبل إلقائه بسبع ساعات ؛ ولقد أخذهم الدهش لما جاء فيه حتى أنه لم ير رأيه منهم سوى صديقه هرندون ؛ ولكن لنكولن كان إذا صمم على أمر لن يلويه عنه شىء فقال لهم « أى أصدقائى : إن هذا الشىء قد أجل مدة طويلة أرى فيها الكفاية ؛ ولقد حان الوقت الذي ينبغى فيه أن أنطق بهاتيكم المواطف ، فاذا قدر لى أن يكون مصيرى السقوط بسبب هذا الخطاب فلأسقطن مربوطاً إلى الصدق ؛ دعونى ألق حتفى فى الدفاع عما أرى أنه العدل والحق ... »

ولما انعقد ذلك المؤتمر الجمهورى الذى كان ينتخب عضو الشيوخ قام فيهم لنكولن يلقى خطابه فقال : « حضرة الرئيس ، حضرات السادة رجال المؤتمر : إذا استطعنا بادئ ذي بدء أن نعلم أين نحن وإلى أى وجهة ، أمكننا أن نعرف ماذا نصنع وكيف نصنعه . إننا الآن بعد خمسة أعوام منذ تلك السياسة التى اتبعت مع وجود ذلك الوعد الوثيق الذى قصد به أن يوضع حد لذلك القلق الذى تبعثه مسألة العبيد ، ولكن هذا القلق طالما أخذت تلك السياسة تفعل فعلها لم يقتصر أمره على أنه لم يوقف فحسب ، بل لقد ظل يتزايد أبداً ؛ وفى رأيى أنه لن ينتهي حتى يفضى بنا إلى أزمة نجتازها . إن البيت الذى ينقسم بعضه على بعض لن يقوم ؛ إنى أعتقد أن هذه الحكومة لا يمكنها أن تدوم ونصفها عبيد والنصف الآخر أحرار ، وأنا لا أبغى أن ينقسم عرى الاتحاد كما لا أبغى أن ينهار البيت ، ولكنى أبغى ألا يستمر فى انقسامه ؛ ولسوف يكون كله إلى هذا الجانب أو إلى ذاك ؛ فأما أن يحول خصوم العبودية دون أى انتشار لها فى المستقبل ويضعوها حيث يرتاح الرأى العام إلى أنها وضعت فى الموضع الذى يفضى بها إلى الفناء النهائى ، وإما أن يدفعها أنصارها إلى الأمام بحيث تصير قانونية فى كل الولايات القديم منها والحديد والشمالى والجنوبى »

ذلك هو الخطاب الذى أفضى به لنكولن إلى رجال المؤتمر فى صراحة وجلاء ؛ ولقد أشفق أنصاره من لهجته الحاسمة ثم من تلك العبارة التى اقتبسها من الانجيل وخافوا أن يحملها خصومه على غير محملها فيظنون وهو يريد بالبيت المنقسم على نفسه الولايات الأمريكية أنه يشير إلى قطع العقدة لا حلها وأن سبيله إلى ذلك الحرب ...

وكان دوجلاس قد نزل بشيكاغو يدعو إلى انتخابه للشيوخ ، فوجد فى خطاب خصمه ومنافسه ، لنكولن ، فرصة يغتنمها فاتهمه أنه من دعاة التحرير بالقوة وأخذ يحذر الناس من انتخابه

واغتاظ لنكولن لتلك التهمة النكراء ، ولـكنه لم يستكثرها على دوجلاس ، وإنه لواثق أن الأيام ستقذف بحقه على باطل خصمه فيدفعه قاذا هو زاهق

وما كان إبراهام ممن يقرون الثورة مهما بلغ من مقته لنظام العبيد ، ولسوف يبقى دستوره هو حل تلك المسألة بما يتفق مع الصالح العام على أن يكون ذلك في كنف الاتحـاد وتحت رايته التي لا يرضى إلا أن تظل خافقة عالية تجمع على محبتها وإكبارها أبناء الوطن كله

وعول دوجلاس أن يخوض المعركة على أساس خصومته لبيوكانون فى مسألة دسـتور كنساس ، لا على أساس مخاصمته لنـكولن أو مخالفته فيما جاء فى خطابه الجديد من آراء كأنه يستعظم أن يكون ذلك الرجل الذى ما زال شأنه منحصراً فى ولايته نداً له ؛ وإن كان دوجلاس ليحس بينه وبين نفسه مبلغ ما تنطوى عليه نفس الرجل من عظمة ومبلغ ما يحمله قلبه من إيمان

ولقد شاع خطابه فى الناس وتناقلته الصحف فى طول البلاد وعرضها ، فكان ذلك أبلغ رد على ترفع دوجلاس وذهابه بنفسه ؛ وأحس إبراهام مبلغ ما أحدثه ذلك الخطاب من أثر فى البلاد ، تبين ذلك فى قوله : « إذا كان لى أن أسر بالقلم على صفحـات تاريخى ، وأمحو حياتى كلها عن الأنظار ؛ وقد ترك لى أن أختار شيئاً أستثنيه من هذا المحو فانى أختار هذا الخطاب فأدعه للعالم لم تذهب معالمه

وليس فى قوله هذا شىء من المغالاة ، فان خطابه كان أكبر حافز لأولى الرأى أن يقفوا من مسألة العبيد موقف الذى يريد أن يصل إلى غاية ، فلا تهاون ولا تلـكؤ بعد اليوم ، وإلا تفاقم الخطب واستعصي الحل ، ودخلت البلاد فى طور من الفوضى الجامحة فيأتى على الأخضر واليابس ؛ كما أن هذا الخطاب كان أهم حادث فى تاريخ حياته فبعده صار للسياسة كل همه ، وبه قدر له أن يصير فى السياسة من رجال أمريكا كلها لا من رجال الينواس فحسب ...

ولقد خطب لنكولن بعدها في شيكاغو يرد على ما اتهمه به دوجلاس ؛ فأعلن أن الوثيقة الـكبرى التى يجب أن يتقيد بها الأمريكيون ويسيروا على نهجهـا هى وثيقة إعلان الاستقلال وأنه يجب أن ينظر إلى مسألة العبيد نظرة إنسانية ، وأن يراعى اتفاق مسورى فيما يشجر بين الفريقين من خلاف

وتكلم دوجلاس بعد ذلك فى بلومنجتن ثم فى سبرنجفيلد ، ورد لنكولن عليه فى المرتين ، حتى بدا له خطا خطوة لم يسبقه إلى مثلها رجل من قبله فى التاريخ السياسى للبلاد ، وذلك أنه أرسل إلى دوجلاس رسولاً يعلن إليه أنه يتحداه أن يلتقى رأياه فى مبارزة خطابية يستمع فيها الناس إليهما ويحكموا بينهما حسبما يرون من كلامهما ...

ولقد ضاق دوجلاس بهذا التحدي وهو الذى يعرف أصالة صاحبه وشدة إيمانه ذلك الايمان الذي رسخ حتى ما يُحتال عليه بحيلة أو تزعزعه مطاولة أو يفل منه جاه أو إغراء ، والذى جعل كل وسيلة من وسائل المغالبة بحيث تـكون منه كالموج من الصخر لا يلطمه إلا لينحسر عنه ولم يبق فيه من قوة الموج بشىء وأبى على دوجلاس كبرياءه وغلواؤه أن يتخاذل فيتخلف عن هذا النزال فقبله على كره منه قال : « سوف تصبح يداى مليئة ؛ إنه رجل حزبه ذو البأس ؛ ملؤه الذكاء والحقائق والتواريخ ... وهو أمين بقدر ما هو أريب حذر ، وإذا قدر لى أن أظهر عليه فسوف يكون انتصارى بشق النفس » وقال فى موضع آخر « إنى لا أحس — بينى وبينك — إنى أرغب فى الذهاب إلى هـذا الجدال ؛ إن البلاد كلها تعرفنى ولقد سبق أن قدرتنى وعرفت قدرى ؛ وأن لنكولن بالنسبة لي ليعد غير معروف ، فاذا أتيح له أن ينتصر علىّ فى هذا الجدل — وإني لأود أن أذكر أنه أقدر رجل فى الحزب الجمهورى — فانه يكسب كل شىء بينما أخسر أنا كل شىء ؛ أما إذا قدر لي الفوز فانى لن أغنم إلا قليلا ؛ إنى لا أحب أن أذهب فى تلك المجادلة معه ... »

ولـكنه على الرغم من ذلك لم يستطع إلا أن يجيبه إلى ماطلب ؛ وحددت سبع مدن يلتقى فيها الرجلان فيتناظران والناس من حولهما يشهدون ما يكون بينهما . وفرح لنكولن وقد أتيحت له أعظم فرصة ليعبر عما فى نفسه ؛ وأى فرصة هي ؟ ألم يك دوجلاس فى الناس أكثرهم استفزازاً له وأدعاهم أن يبرز له ما استكن من مواهبه ؟ ثم أليست هذه المجادلة كفيلة أن تجمع إلى أنصاره ومحبيه انصار دوجلاس ومحبيه فيكون الـكلام فى حشد قلما يتسنى أن يلتقى على هـذه الصورة ؟ فاذا قدر له أن يكسب هذه القلوب أو أن يصل إلى إقناع هذه العقول فأى فوز هو وأى فخر ؟

« يتبع »

الخفيف